رعاية الأيتام في المغرب الأوسط بين تجاذبات السلطة السياسية وفاعلية النخب الفقهية والصوفية – العصر الزياني (633–962هـ/1236–1555م) أنموذجا–

Orphan care in the Middle Maghreb for the political power and both of jurisprudential and Sufi elites - the Zayani era 633-962AH/1236-1555 -AD as a model

ط.د. رشدي روباش*

جامعة قسنطينة2 عبد الحميد مهري.

مخبر الدراسات والبحوث في حضارة المغرب الإسلامي جامعة قسنطينة2.

rochdi.roubache@univ-constantine2.dz

د. عبد الخليل قريان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة.

gueriane_adjalil@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/02/27 تاريخ القبول 2023/04/14 تاريخ النشر 2023/05/14

ملخص: تروم هذه الورقة العلمية رفع ستار الغموض عن الأوضاع العامة لشريحة من الشرائح المهمشة في المغرب الأوسط خلال العصر الزياني، ونقصد بهذا تلك الفئة المستضعفة، المحرومة بسبب فقدان العائل وسند الأسرة، بفعل وفاة الوالدين أو أحدهما ألا وهي "فئة اليتامى"، وذلك من خلال الوقوف على أساليب الرعاية التي خُصَّت بها هذه الشريحة في مجتمع المغرب الأوسط الزياني، وسنركز على عرض جوانب من التكافل، وأسس ذلك عند سلطتين فاعلتين في المنظومة الاجتماعية، ونقصد هنا حضور

* المؤلف المراسل

السياسات الاجتماعية لسلطة البلاط الزياني وفاعليتها اتجاه هذه الفئة المستضعفة، ونخص أكثر أدوار سلاطين تلمسان في الأداء التكافلي والخيري، ومرورا بالسلطة الفقهية والصوفية لعرض جوانب من تدخلات فقهاء وأولياء وصلحاء تلمسان لنصرة اليتيم، والوقوف على دور الخطاب الفقهي والمنقبي في تفعيل الجوانب الخيرية للمجتمع، وتحسين جودة الرعاية الاجتماعيّة، ومجالات حضور الكرامة الصوفية، ودورها في حمايتهم وجذب الاهتمام نحوهم.

الكلمات المفتاحية: الأيتام–السلطة الزيانية–الفقهاء–الصلحاء–المتصوفة –الرعاية الاجتماعية.

Abstract: This scientific research aims to clarify the general situation of a marginalized group in the middle Maghreb during the zayani era.we mean"orphans".
In ordre to show the methods of caring for this group in the zayani middle maghreb society.we focus in this research on showing how two main authorities in society have sympathized with this weak segment.
By this we mean the role of these zayani social policies in taking care of this group.
we also focus on the roles of the sultans of tlemcen in helping orphans as well as the method of jurusprudence and sufism in helping them.By presenting some of the jurists interventions in the issue of orphan support And the role of the sufis in protecting orphans.
Keywords: orphans - Zayani authority - jurists - righteous people- Sufis - social care.

مقدّمة:

لا جرم من أنّ الواقع الذي فرضه نسق التراتبية الاجتماعية في المغرب الأوسط الزياني، أدرج فئة الأيتام ضمن الشرائح الاجتماعية الأكثر استضعافا؛ المهمشة؛ والقابعة في الظل، استنادا لاعتبارات تتعلق جلها بمسببات انتشار اليتم، وتبعات ومخلفات تنامي الظاهرة بمجال المغرب الأوسط، ومرورا إلى انعكاساتها على الوضعية المعاشية، وتأثيراتها على الجوانب الاجتماعية، المادية، وحتى النفسية لهذه الشريحة المستضعفة.

ولعلَّ فقدان العائل وما يخلفه لدى الطفل اليتيم من تأثيرات اجتماعية ونفسية، واتخاذ مجرى مغاير في الحياة، كتولي المسؤولية المبكرة، والتعاطي مع الشغل تأجيرا وعمالة، وتأثيراته على سنِّه وبنيته، حتَّم على الفاعلين الاجتماعيين خصوصا من النخب السياسية؛ الفقهية؛ وحتى الصوفية؛ السعي لاحتواء هذه الشريحة المقهورة وتخصيصها بالرعاية، وذلك إبرازا للجهود المجتمعية في مواجهة مخلفات اليتم، وإرساء لأواصر الترابط والتكافل الاجتماعي مع هؤلاء المستضعفين بمجال المغرب الأوسط الزياني.

انطلاقا من هذا المعطى ومن أجل الوصول لرسم معالم واضحة وجلية لما ستنبني عليه هذه الورقة العلمية في مجملها، سعينا إلى ضبط الأطر التي ستعالج محتواها، وذلك بطرح جملة من التساؤلات المشروعة، لعل أبرزها:

– ما مدى حضور الأيتام في السياسات الاجتماعية لسلطة البلاط الزياني؟

– كيف تعاملت فئات النخبة " فقهاء ومتصوفة" مع تداعيّات ظاهرة اليُتم في المغرب الأوسط الزياني؟ وفيما تجلّت مظاهر رعايتها للأيتام؟ وما دور الخطاب الفقهي و المنقبي في ترغيب الفاعلين الاجتماعيين للتخفيف من وطأة اليتم وتبعاته؟

لعلّ ما يدعوا لدراسة شريحة اليتامى في المجتمع الزياني، والنبش في أوضاعها، ونفض الغبار عن واقعها، هو أنّ أرقامها كانت في منحى تصاعدي وتزايد مستمر خلال هذا العصر تزامنا مع الظروف التاريخيّة التي عصفت به، في ظل الحروب والأزمات الأمنية، ما ساهم في خلق شريحة ديموغرافية هائلة من الأطفال الأيتام.

وفي سياق البحث والتحري عن المعطيات التاريخية والاجتماعية حول فئات المهمشين، يقرّ الباحثون في هذا الحقل وفي واجهتهم إبراهيم القادري بوتشيش بقلة المعلومات حول الأيتام خلال العصر الوسيط، وكونها في غاية الإبهام والضبابية، ذاهبين إلى اعتبار أنّ الإسطوغرافيا التقليدية تكتَّمت عن ذكر أخبارهم، وجعلتهم في عداد المنسيِّين والمهملين في التاريخ، مفسرين تلك المعضلة ب"المرض المزمن" الذي يَصُمُّ الكتابة التاريخيّة، والمتمثّل

في تهميش تاريخ العوام والشرائح الدنيا بما فيهم الأيتام، وحسبهم مرجعيّة هذا التغييب[1] تكمن كذلك في نظرة المجتمع لهؤلاء على أنّهم مجرد قاصرين يعيشون تحت الوصاية[2]، فجملة الأسباب المذكورة تفرض علينا كمهتمين بهذا الحقل السعي لرفع سقيفة الغموض، وكشف المستور حول هذه الصورة المظلمة التي حَجَمت تفسير الكثير من الحوادث المرتبطة بظاهرة اليُتم بمجال المغرب الأوسط الزياني، لذا وجب علينا أوّلا وضع تفسير منطقي لسببيّة الارتفاع المتزايد لشريحة اليتامى وتوسع دائرتهم بالمجال السابق الذكر:

أوّلا: الحروب والنزيف البشري: نكبات ديموغرافية وتصاعد لمؤشر اليتم : شكلت الحروب سمة بارزة خلال العصر الزياني، وباعتبار الصراعات المسلحة آفة فتاكة لأعداد كبيرة من الساكنة، تظلّ شريحة الأطفال الذين هلك آباؤهم في الحروب أبرز من تضرروا منها، فيما نسميهم بأيتام الحرب، ولا شك أنّ هذه الفئة من الأطفال اتسعت قاعدتها نتيجة كثرة من قتل من الآباء، وتركوا أبناءهم كلّا وضيّاعا دون معيل[3]، فمع تَعاظُمِ شعور الفَقْد واجه هؤلاء العديد من الضغوطات، والتجارب السيّئة المرتبطة بظروف الحرب، التي خَيَّمَتْ آثارها على ذهنيّتهم ونفسيّتهم سنين طويلة، وارتسمت كتجربة كان لها انعكاس سيّء على شخصيّتهم[4]، وهو ما يتجلّى في مظاهر الضعف وشعور الحزن والاضطراب النفسي، ترجمته عديد النصوص من قبيل:" و ذرية ضعاف ضيق عليهم رحب المشرق والمغرب"[5]،"وكم من رجل لبسوا عليه ثياب حداد، وظنوا أنّه قد غلق رهن حياته برماح ذلق وسيوف حداد"[6]...الخ.

فكثرة عوامل الفناء سببه تعاظم الصراعات والنزاعات العسكرية والحروب المتكررة والتي كانت تنشب بين دولة بني زيّان وبين جارتيها الحفصية و المرينية في غالب الأحيان، شكّلت سببا مباشرا لتدهور الوضع الديموغرافي، من خلال وفاة أعداد هائلة من الجنود الآباء المشاركين في هذه الأحداث الفتاكة، حيث ضمّنت لنا المصادر التاريخيّة معطيات رقميّة، ونصوص انطباعيّة[7] تلمّح على حجم الضرر، وتصاعد معدّلات الوفيات في

أوساط ساكنة المغرب الأوسط الزيّاني، وبالأخص خلال تلك المحن الكبرى التي شهدتها تلمسان وضواحيها، فالحصار المريني الطويل على تلمسان698-706هـ/1298-1306م من طرف أبو يعقوب المريني كان سببا في تحول ديموغرافي كبير شهدته الحاضرة الزيانية:" فكانت مدة هذا الحصار الأكبر والخطب الشديد ثماني سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام"[8]، ويظهر حجم الضرر الذي خلفه في تعابير الهلاك، وانتشار الجثث، وارتفاع أرقام الوفيات والمفقودين:" وكان على أهل تلمسان بلاء عظيم من غلاء الأسعار وموت الرجال"[9]،"وبلغ فيها عدد موتى أهل تلمسان قتلا وجوعا زهاء مائة ألف وعشرين ألف"[10]،" وهلكت الناس بالجوع والسيف "[11]، " وأذهب الله العناء عن آل زيّان وقومهم وساكني مدينتهم كأنما نشروا من الأجداث"[12]، كما تظهر هذه التعابير في مخلفات الحصار الثاني لأبو الحسن المريني على تلمسان بين 735-737هـ/1335-1337م، يقول الزركشي:" وفي أواسط سنة خمس وثلاثين خرج السلطان أبو الحسن المريني من فاس إلى تلمسان لأخذ ثأر صهره السلطان أبي بكر من صاحبها ابن تاشفين ففتحها عنوة ودخلها لسبع وعشرين من شهر رمضان المعظم سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ...فيقال أنّ عدد القتلى الذين قتلوا أيام حصار تلمسان هذا من الفريقين ثمانون ألفا"[13]، ويقف نص انطباعي مغاير في تمثيل حجم النزيف الديموغرافي"... إذ اقتحم السلطان بكافة عساكره، وتواقع الناس بباب كشوط فهلك منهم أمم"[14].

ومن تجليّات الحرب ووقعها على الساكنة مظاهر ذلك الصراع المتواصل بين سلاطين الدولتين، ومثال ذلك ما وقع بين أبي سعيد عثمان الزيّاني(749-753هـ/1348-1352م) وأخوه أبي ثابت مع السلطان أبا عنان المريني(749-760هـ/1348-1359م) ومخلفاته[15]، فهذا الشاعر أبو عبد الله محمد الغرناطي يعبّر عن ذلك في أبيات أنشدها (753هـ/1352م)[16]: "كم خلفوا من يتيم أو من أرملة يذرون دَمْعًا بمنهلٍ ومُنْهَمَلٍ"[17]، فما تحمله عديد النصوص الشعرية توثق حجم الصراع مع بني مرين، وما

خلفه من خسائر بشريّة وسط الزيّانيين، أو ما يمكن أن نصفه "بالنكبة الديمغرافيّة"، فالتلميحات المتعددة لدلالات الوضعيّة النفسيّة التي عاشها الأيتام من خلال شعور الحزن والوحدة " يذرفون دمعا"، وما يدعم التوجه وصف نتائج حملة أبي الحسن المريني نحو إفريقية مرورا بالمغرب الأوسط(748-752هـ/1347-1351م) في قول الشاعر:" يتَّمَ الأولاد ورمَّل النسوان"[18]، وفي قوله على لسان بعضهم " أولادنا تيتموا بنات وبنين"[19]، فملامح هذا الوضع الاجتماعي والديموغرافي المزري يترجمها وصف ابن مرزوق الخطيب(ت781هـ) لمجريات الحرب على تلمسان :" فكم خربت فيها من ذمم، وكم هلكت فيها من أمم، وكم انجلى من أهلها أعلام، وكم كابدوا من محن فيها وانتقام"[20].

أثبتت التحليلات نتيجة مفادها أنّ البنيات الاجتماعيّة بالمغرب الأوسط الزياني وبالأخص الأسريّة منها، قد تكبّدت خسائر بشريّة ديموغرافيّة ذات معدّلات هائلة، جرّاء تعرّضها لأزمات الحروب والصراعات المتعاقبة التي عصفت بالجماعات السكّانيّة، خصوصا خلال ق8و9هـ مع تفاقم الصراع بين الزيانييّن والمرينيّين وبلوغه الذروة، مخلّفا وراءه معدّلات كبيرة من الوفيات والمفقودين، وتنامي لمؤشر اليتم وارتفاع لشرائح المستضعفين.

ثانيّا: مركزية العناية باليتامى بمجال المغرب الأوسط من خلال المدونات التراثية:

يذهب لخضر بولطيف إلى الإقرار بأنّ فعل الخير يدور بين نص يمليه وواقع يتجلى فيه، وأنّ للنص حرفانية تكاد تبتليه بالانغلاق والجمود، وللواقع إكراهات ما برحت تسِمه بالاستعصاء والصدود، وأنّ مساحات التناغم بين النص والواقع، الأول فيما لا ينفك عنه في خصائصه من مرونة ومقصدية، والثاني فيما يعتريه من تبدل أحوال وشواهد، وتجدد أعراف وعوائد[21]، فامتداد المعنى لهذا المعطى يكمن في أنّ تجليات الاهتمام بالفئات الهشّة ورعايتها ضَمّنت أواصره وبواعثه المدونات التراثية الإسلامية في نصوصها المتباينة، وجُسدت معانيها في الواقع المعاش، استنادا لما يحمله المجتمع الإسلامي من قيم ومبادئ

لفعل الخير والتسابق إليه، بحيث تشكلت ملامح خطابه مما يستمد من المرجعيات الأساسية، فقد اهتم القرآن الكريم والسنّة النبوية برعاية اليتيم وكفالته والعناية بشأنه اهتماما عظيما، فنال من العناية ما لم ينلها أي قريب محتاج من ذوي الرحم المحرم، وكأنّ الإسلام جند المسلمين جميعا للقيّام بحق اليتامى، والتقرب إلى الله تعالى بالعطف عليهم، والقيّام بما يحتاجون إليه من رحمة[22]، وبالنظر في نصوص القرآن العديدة في شأن اليتيم، فإنه يمكن تصنيفها إلى خمسة أقسام رئيسية، كلها تدور حول: دفع المضار عنه، وجلب المصالح له في ماله، وفي نفسه، وفي الحالة الزوجية، والحث على الإحسان إليه ومراعاة الجانب النفسي لديه[23].

ومع توسع رقعة العالم الإسلامي توسعت معه أساليب رعاية اليتامى وحفظ أموالهم واتخذت أشكالا متعددة، منها ما كان فرديا، ومنها ما كان جماعيا، ولما كان الولاة والسلاطين هم المعنيون بأمور الرعية تولى هؤلاء شؤون الضعفاء[24] وبالأخص من جنس اليتامى وذوي الحاجة، ولعلّ ما يعكس ذلك الاهتمام هو مبنى النصوص ومقاصدها، تحمل بين طياتها أولوية اليتامى في مركزية التكافل والتضامن مع الفئات الهشة داخل المجتمع بمختلف طياته وتشكيلاته.

وفي هذا السياق توصف تلك المدونات بأنّها من المرجعيات الرئيسية في بناء التصورات حول العلاقة بين السلطة والفئات المستضعفة وباقي التشكيلات في المجتمع المغرب أوسطي، فمجمل النصوص التي ضمنتها تكشف الستار عن الجوانب المتعلقة برعاية الأيتام وأولوية ذلك لدى سلاطين وفقهاء ومتصوفة المغرب الأوسط الزيّاني، فقد دأب هؤلاء على توجيه الرعاية ليتامى الحروب، واقترن ذلك الفعل بالمناسبات الاجتماعية والدينية أكثر منها في الأيام العادية، فكانت أولى البواعث توجيه نداءات الرعاية وحسبنا في ذلك عبد الرحمان ابن خلدون (ت808هـ/1406م) الذي وجه تنبيها للحكام بقصد رعاية الأيتام، مستدلّا بالآية الكريمة: "وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً

ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ"[25] ، ومعرّجا على تفاصيل ذلك في قوله:" فمال كل يتيم يُحتفظ عليه ويُذبُّ عنه ولا يقربه أمين الحكم ولا غيره إلاّ بالتي هيّ أحسن، ويتفقّده الحاكم بنفسه وقتا بعد وقت ويحرص على تنمية وتعمير ما يتخرب من عقاره وترميمه وإيجاره من غير تعطيل، وعلى استخلاص ما يستحق مما في الأيدي والذمم من غير تهاون ولا تأخير، ويفرض نفقته وكسوته بالمعروف، ويسلمه لمعلم ناصح، ويتفقد حاله كل وقت، وبالجملة الأيتام أولاد الحكام اليقظين، وكلهم مسؤول عن رعيته" [26]، في حين ركز محمد بن عبد الكريم المغيلي(ت909هـ/1504م) في نصيحة للحكام للتكفل بتعيين أوصياء عليهم والحفاظ على مالهم، في قوله: " ويحجر على كل مهمل من يتيم ويأمر برفعه إليه ليولِّيَّ عليه، ويكشف عن شأن كل من ترك من ضعفاء البنين والبنات"[27]، فمقاصد النصوص هنا مخاطبة الملوك للرفق بالرعية الأيتام، والعناية بهم، والتذكير بفضل ذلك في الظروف العادية وخلال الأزمات وشدّة الحاجة، ويترجم ذلك قول الماوردي (ت450هـ/1058م):" وينبغي للملك أن يقيم رعيته مقام عياله واللائذين به في ارتياد موادهم وإصلاح معاشهم بالإحسان إليهم وحذف الأذى عنهم، ولا يهمل حالهم، ويصرف نفسه عن تفقد شأنهم فيصيروا رعية قهر، وفريسة دهر، تتشذب أحوالهم غفلة السلطان وحوائج الزمان"[28]، فهذا السلوك متوطن في الأنفس البشرية المسلمة الحاملة لقيم ومبادئ سمحة، فهذا الجاحظ(ت255هـ/868م) يورد نصا: "قال فيه رجل من النسّاك لصاحب له: مالي أراك حزينا؟ قال: كان عندي يتيمٌ أربّيه لأؤجر فيه، فمات وانقطع عنا أجره، إذ بَطَلَ قيّامنا بمئونته"[29].

لم ينحصر العطف على اليتامى على الحكام والملوك، حيث كانوا يزرعون هذه الخصال الحميدة في ذريتهم وباقي التشكيلات الاجتماعية، ومن ذلك أنّ جملة من نصوص المظان في شاكلة وصايا ملوك لأبنائهم بغرض حثهم على رعاية اليتامى، يقول أحد الملوك وهو يخاطب ابنه:"... تعاهد ذوي البأساء ويتماهم وأراملهم، واجعل لهم أرزاقا من بيت المال

اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله تعالى في العطف عليهم والصلة لهم، ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة"[30]، وهذا أبو حمو موسى الزياني (760-791هـ/1359-1389م) يوجه ولده للعناية والاهتمام بأيتام تلمسان والانصات لهم وتفقدهم، وذلك بتخصيص يوم الجمعة لمجلس الشكايات:"...وبعد فراغك من الصلاة تجلس بمجلسك للشكايات وتأخذ في قضاء الحاجات...وهذا المجلس في هذا اليوم المذكور مخصوص بالرعيّة والجمهور...تتفقد الضعفاء والمساكين والأيتام المحتاجين"[31]، فمقصد العمل بهذه الخصال هو اليقين بفعل الرحمة باليتيم والفرق بين مجرد العلم بأنّ هذه الرحمة قربة والاتصاف بهذه الرحمة وحصول ملكتها وصيرورتها، يقول ابن خلدون:" إن كثيرا من النّاس يعلم أنّ رحمة اليتيم قربة إلى الله تعالى مندوب إليها، ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشريعة، وهو لو رأى يتيما أو مسكينا من أبناء المستضعفين لفرَّ عنه واستنكف أن يباشره، فضلا عن التمسح عليه للرحمة، وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة، فهذا إنّما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم، ولو يحصل له مقام الحال والاتصاف، ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قربة إلى الله تعالى مقام آخر أعلى من الأول، وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها، فمتى رأى يتيما أو مسكينا بادر إليه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه، لا يكاد يصبر عن ذلك، ولو دفع عنه، ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده"[32].

كما أولت النصوص التراثية اهتماما خاصا بيتامى الحروب أبناء الجند وتبيان فضل رعايتهم، ومن ذلك ما ضَمَّنَته:"...وإذا مات أحدهم أو قتل كان ما استحقه من مخدوم عطائه موروثا منه على فرائض الله تعالى، وهو دين لورثته في بيت المال، ومن مات منهم أو قتل وخلف في موضعه أحدا أجرى على مخلفيهم ما يسعهم، ولا يضيعون معه أصلا لاسيما إن كان من أولاد الميت أو المقتول، فإنّ آبائهم ماتوا في خدمة المسلمين وتركوهم

كلا وضياعا، فهم إلى الله تعالى وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان رسول الله "ص" يقول للمهاجرين والأنصار رضيّ الله عنهم في غزواته كلّها: من ترك منكم كلا أو ضياعا فعلي وإلي، ومن شاخ منهم أو زمن أجريّ عليه ما يقوم به وبعيّاله على السعة... ومن نشأ من أولاد المسلمين وليس في مال أبيه فضل يتمون به، أجريّ عليه الإمام ما يتموّن به حتى يقوم بنفسه، وإن كان في بيت المال فضل"[33].

ثالثا: واقع رعاية اليتامى في سياسات السلطة الزيانية بين الدعوى والتجسيد:

تمظهرت رعاية اليتامى عند ممثلي السلطة في حاضرة الزيانيين في مظاهر وأوجه عديدة، فأولى سلاطين بني زيان على تعددهم واختلافهم اهتماما بأيتام المجتمع ذوي الهشاشة والخصاصة، فكالوا لهم الرعاية الاجتماعية، التربوية، الصحية، وحتى النفسية، فتجلت مظاهر هذا الاهتمام في جملة الخدمات التي سارعوا إلى تقديمها لهم، وحل جملة الشكايات والنزاعات والقضايا الاجتماعية التي أشكلتهم، فكانت الأعياد، المناسبات الدينية و الاحتفالات منبرا لهؤلاء لمعالجة قضاياهم من طرف حاكمة تلمسان، ولكن السؤال المطروح هنا: هل رعاية السلطة الزيانية لليتامى هي رعاية مقترنة بالمناسبات والأعياد والاحتفالات أم رعاية دائمة ؟.

كان لأزمات الحروب والشدائد أن أفرزت نوعا من السلوك التضامني عند التشكيلات السلطوية للبلاط الزياني مع الشرائح المستضعفة والمسعفة من اليتامى، عبَّرت بوضوح عن مدى التماسك والتكافل الاجتماعي، كانت البادرة بتوجيه نداءات الإغاثة ونشر لسبل فعل الخير ضمنتها وصايا الملك ومصادر المرحلة، وذلك لغرض استقطاب الفاعلين الخيريين للمشاركة في الأداء التكافلي مع يتامى تلمسان وبالأخص أبناء الجنود الذين فقدوا في حروب بني زيان، وهو ما تحمله وصية أبو حمو موسى الثاني لولده أبي تاشفين:" وهذا المجلس في هذا اليوم المذكور مخصوص بالرعية والجمهور، تتفقد الضعفاء والمساكين والأيتام المحتاجين"[34]، ولعلّ فترة حكم أبو حمّو موسى الزيّاني تعتبر أزهى فترة بالنسبة

ليتامى تلمسان والسلطنة الزيانية، لحجم الاهتمام والرعاية اللذان أولاهما هذا السلطان لهذه الشريحة، والتي تجلّت في مظاهر الواقعيّة والفاعليّة رغم قلة النصوص المفصلة في ذلك، فهذا أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري يتغنى في مدح المولى أبي حمو وولي عهده أبي تاشفين: مغنى يتيم كل سال حسنه قل كيف يسلو عن هواه متيم[35]، وللحاج أبي عبد الله محمّد بن أبي جمعة التلاسي طبيب الحضرة العليّة قصيدة في مدح أبي حمّو موسى الزيّاني يقول فيها: حللت من الملك أسنى محل رحمت يتيما وأغنيت عائل [36]

فلا جرم من القول أنّ العناية بالأرامل واليتامى خصلة من خصال الأسرة الزيّانية حيث توارثت هذه الخصال، فقد كان المولى أبو يعقوب والد أبو حمو الزياني كثير العناية بهم، وهو ما يعكسه حجم الفقد والحزن عليه عند وفاته، إذ يقول التلاسي:

بكت الأرامل واليتامى بعده إذ ماله بين الكرام نظير[37].

ولعلّ الاهتمام المزايد بالأيتام والضعفاء اقترن بالمناسبات الدينيّة، فيوم عاشوراء يستحسن التوسعة فيه على اليتامى والمساكين وبزيادة النفقة والصدقة[38]، وأثناء الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وفي هذا يقول صاحب كتاب زهر البستان:" وفي أثناء هذه المبايعة وافاه مولد النبيّ صلّى الله عليه وسلم، فكان أول موسم وافاه وهوّ إمام فصنع ليلة باهرة عن كلّ خير سرفوه، أنفق فيها غاية الإنفاق وأوسع بوسيع الاختراق"[39]، فالأيتام أدرجوا في طليعة الشرائح التي في حاجة إلى إنفاق من مال الخزينة الزيانية.

إنّ قلّة نصوص المرحلة الدالّة على أنّ هذا الاهتمام والرعاية من قبل الدولة الزيانية سنة دائمة، يبرره أحد المختصين ولو أنّ الأمر يخص الدولة المرينية لتشابه السياسات الاجتماعية مع الدولة الزيانية، يذهب إلى الإقرار بأنّ هذه الإجراءات لا تعدو أن تكون مجرد أعمال إحسان وصدقات موسمية، ولا تشي باهتمام قار ودائم من قبل الدولة بشريحة الأيتام، على خلاف ما شهدته بلاد المشرق الإسلامي في المرحلة نفسها التي خصتهم بأموال وأحباس ودور وملاجئ تأوي من لا كفيل له[40].

على مستوى الخدمات الاجتماعيّة، لا جدال إن قلنا أن يتامى طبقة الخاصّة على غرار أبناء السلاطين حظوا برعاية تامّة بخلاف أقرانهم من العامة، فهذه اليتيمة بنت السلطان الزيّاني أبي تاشفين أقيم لها في زواجها ما لم تشهده بنات جنسها، وهو ما يعكسه أحد النصوص:" وفي هذا العام 764هـ/1363م وصلت العروسة من المغرب لتلمسان وهيّ بنت المولى أبي تاشفين السلطان، هذه العروسة المباركة أصغر أولاد المولى أبي تاشفين، وأظنّه قد مات رحمه الله وهيّ ابنة سنة واحدة من السنّ...أحيرت على عسل ومطايا وذخائر ممّا يليق بالهدايا، فكان لعراسيّتها ستر عظيم وتنويه جسيم، ركب لركوبها خمسون جاريّة، وأقام لها خمسين عماريّة دون ما تبعها من كرائم العبد الواديّات، ونساء للخدّام الأحرارات المشرفات، ثمّ أمر أن يخرج بالطبول والعلمات، وأن تركب لها الجيوش و الساقات فكان الفرسان يلعبون والنّاس من ذلك الهيكل يعجبون"[41]، ويضيف" فكانت ركبه لم تصنع إلّا لأبناء جنسها، وحاشى أن يكون عرس قبل عرسها ذبحت فيه الأبقار والأغنام وجرى الأسبوع بالشراب والطعام، فكأنّها عَرَاسِيَّةٌ شاع ذكرها في الآفاق وسترت بذكرها في الأقاليم الرّفاق، أظهر فيها صلب الملوك الكرام وأسبوع سوابع العطايا والإنعام[42]، وهذا اليتيم أبو العبّاس أحمد ابن مرزوق الذي ربي تحت حجر جدته، وبعد أن توفيت وهو صغير كفلته أخته زينب بتلمسان ،كان سلطانها يبعث إليهم ما يحتاجون إليه[43]، إضافة إلى أنّ الأيتام النوابغ حظيو بالاهتمام فكالوا لهم كل المتطلبات ووفروا لهم جميع الظروف لاكتساب العلم، فيذكر أنّ أحد سلاطين بني زيّان منح لليتيم ابن زكري بيتا برتبته وفرشه وسمنه وزيته ولحمه وجميع ما يموّنه وذلك بعد وساطة من الشيخ محمد بن العبّاس[44]، كما أبدى هذا السلطان اعجابا كبيرا بهذا الفتى اليتيم لما تميّز به من دهاء وحكمة في حلّ المسائل الشرعيّة، وذلك في قوله بعد الاستفسار عن والده واجابة محمد ابن العبّاس أنّه ابن ذراعه، فقال له السلطان: يا سيّدي ما يعجبني إلّا ابن ذراعه فقيه مليح[45]، فالسلطة الزيّانيّة تتولى نفقات تعليم الأيتام ونقصد بالأساس دفع مرتبات

المؤدبين والمعلمين، ويطرح السؤال ذاته حول مؤدبي أبناء السلاطين والأمراء وطبقة البلاط الزيّاني، في ضوء ما توفر يمكن الذهاب إلى أن قطاع الكتاب كان يتم بمبادرات خاصّة، وهذا لا ينفي تكفل الدولة بنفقات تعليم الأيتام من خلال مؤسسة الأوقاف[46]، وهنا يطرح مشكل تعامل المعلمين مع اليتامى، وفي هذا أورد ابن سحنون في تعليم الأيتام" ماجاء في الأدب ومايجوز ذلك وما لايجوز"، مستدلا بحديث الرسول صلّى الله عليه وسلم:" شرار أمّتي معلّمو صبيانهم أقلّهم رحمة لليتيم، وأغلظهم على المسكين[47]".

تثبت بعض التحليلات أنّ شريحة الأيتام لم تنل من اهتمام الدولة ما يكفي، خاصّة وأنّ قضيّة أيتام الحرب تحوّلت إلى مشكلة اجتماعيّة حقيقيّة، فقد حدّثتنا النصوص عن حالات طالب فيها الجنود بضرورة تعهّد الدولة بإعالة أبنائهم في حالة موتهم في حروبها، وجعلوا ذلك شرطا أساسا مقابل تقديم خدماتهم العسكرية[48]، ورغم محاولات بعض السلاطين حل بعض المشاكل التي يعاني منها اليتامى إلّا أنّها عجزت عن ذلك كون هذه المبادرات كانت موسميّة أوقات الأعياد، وكون أيضا الكثير من الأيتام كانوا في معزل عن مثل هذه المبادرات للبعد الجغرافي عن مركز القرار خاصّة وأنّ الأسر في الأرياف كانت شبه معزولة[49].

لجوء السلطة لرعاية الأيتام هو سبيل لجلب واثارة الاهتمام اتجاه هذه الشريحة المستضعفة من باقي التشكيلات الاجتماعية والفئوية وبالأخص فئات النخبة بين فقهاء ومتصوفة: فأي دور منوط بهذه النخب مع هؤلاء اليتامى؟

رابعا: الخطاب الفقهي والمنقبي وفاعليّة احتواء اليتامى ورعايتهم في المغرب الأوسط الزيّاني:

لا يكتمل المشهد التضامني التكافلي في تاريخ مجتمع المغرب الأوسط، دون تسليط الضوء على أطراف أخرى كان لإسهامها دور لا يقل عن دور السلطة أو الهيئات الحكومية، ونقصد هنا الدور الذي اضطلعت به المؤسسات الأهليّة، أو ما يقابل في لغة العصر

الوسيط فئة الفقهاء[50] والمتصوفة[51]، حيث اعتبر مجال نشاط هؤلاء مجالا حيويّا داخل المجتمع الزياني، وتجلى ذلك في إبراز أدوارهم الفاعلة في رعاية الفئات المستضعفة وبالخصوص من اليتامى، الذين عانوا الويلات جرّاء الأوضاع المعيشية التي طبعتها المشقّة والمقاساة والضَنْك ، فكان الأمل في تحسين وضعهم الاجتماعي بتدخّل الفقهاء و الصلحاء الزيانيين، من خلال بث خطابات الترغيب في أوساط الساكنة وبالخصوص الفاعلين السياسيين من سلاطين تلمسان بغرض توسيع التعاطف مع الضعفاء والمساكين، والعمل على توفير سبل الرعاية لهم، وذلك بتفعيل كراماتهم، ودورها في احتواء تلك الشريحة وتوفير متطلباتها والحماية لها، فكان ذلك ابرازا لفاعليّة الخطاب الفقهي وسلطة الولاية والصلاح، وكونهما البديل الأنسب لغيّاب أو تراجع أدوار السلطة الزيانية اتجاه هذه الفئة المستضعفة، فتمظهرت تلك الرعاية في أشكال نستعرض منها:

1.بين الكفالة والرعاية الاجتماعية "توفير للمتطلبات وبذل للصدقات":

لا جرم من الافصاح أنّ الاهتمام باليتامى والعطف عليهم صفة متوارثة بين الفقهاء وجموع المتصوفة والأولياء، فيتفقدوهم في منازلهم وفي الطرقات وفي المكاتب، يسألون عن أحوالهم ويلبون لهم ما يحتاجونه من كسرة وطعام، ويوزعون عليهم بواكير الفاكهة وأصناف الحلوى في أيام الأعياد والمناسبات[52]، حتّى أنّ خطابات الفقهاء ضمنت في أولوياتها مركزية رعاية اليتيم، ومن ذلك أنّ أحدهم في افتتاحية خطابه يصرح قائلا:" الحمد لله الذي أيدنا بالرشد والتوفيق، وهدانا لمنهج الحق والتحقيق، ونحمده على ما اختصنا به من الدين والفقه فيه، ونشكره على ما أولانا من العرفان والبيان، والصلاة المباركة على المبعوث بالرفق واللين، والحنو على اليتامى والمستضعفين"[53]، فالشفقة على اليتيم خصلة دأب عليها أصحاب الصلاح فهذا الولي أبو عبد الله الحلوى[54] تحلّى في أسلوب تعامله مع الأطفال بتخصيص رعاية خاصة لليتامى فكان يوزع عليهم صنوف

الطعام بتلمسان، حيث ينقل لنا يحي ابن خلدون(ت780هـ/1378م) موقفا له اتجاههم، قال حدّثنا الإمام أبو إسحاق ابراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي المعروف بابن المرأة، قال:" أتيت من مدينة مرسية زائرا عمة لي بتلمسان فما سرّني شيء كوجودها حية، وتطوفته يوما بتلمسان فرأيت هذا الشيخ بالسوق وبيده طبق من عود وهو يبيع فيه الحلواء للصبيان الصغار، ثم أخذ شيئا من ثمن حلوائه فاشترى به كسرة خبز سميد، فتصدّق بها على يتيم ذي أطمار بعد علمه بحاجته"[55]، ولعلّ مرجعية هذا الفعل الخيري كانت مبدأ أساس عند أولياء تلمسان، فظهرت مكامن ذلك عند الكثير منهم، فهذا الولي والفقيه محمّد بن يوسف السنوسي(895هـ/1490م) تحلى بالعطف في تعامله مع الأطفال من اليتامى والضعفاء، حيث يتزاحمون على تقبيل أطرافه، يوقر الكبير ويقف مع الصغير ويتواضع للضعفاء[56]، وما يوثق ويؤكد فعله تلك الأبيات التي ترثيه من قبل بعض الفضلاء تعكس معاني السخاء والشفقة عليهم والإسراع لكفالتهم: يعطي الأرامل والأيتام ما سألوا[57]،...من للأرامل والأيتام يكفلها[58]،...كهف المساكين للأيتام كافلهم[59]...الخ

رغم محاولة بعض اليتامى كسب معيشتهم وقوتهم اليومي من خلال الاشتغال على عديد المهن والأعمال، إلّا أنّ جلّهم واجهوا عجزا في توفير متطلبات حياتهم اليومية، فيذكر أنّ أبا العبّاس بن القطان كان شابا محتاجا يتيما يمارس شغل الخياطة ويسافر لتحصيل رزقه، لكنّه واجه صعوبة في الزواج بسبب حالته المادية المتدهورة، فكان للشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن مرزوق(ت681هـ/1282م) الفضل الكبير في إعانته وتزويجه من خلال دفع جميع متطلباته[60]، كما يروي اليتيم ابن زكري (ت899هـ/1494م)عن طفولته وفضل الفقيه ابن زاغوا في تكوينه العلمي ورعايته المادية والمعنوية، يترجم ذلك ابن مريم المليتي(كان حيا 1025هـ/1615م) في قوله:" كان في ابتداء أمره رضيّ الله عنه مات أبوه وتركه صبيّا صغيرا في حضانة أمّه، ثمّ إنّ أمّه أتت به يتعلّم الصنعة، وأدخلته في طراز

عند معلّم يتعلّم الحيّاكة، وبقيّ عنده حتّى تعلّم النسج، ثمّ إنّ الشيخ ابن زاغوا أتى بغزل ينسجه عند المعلّم، فسمع سيّدي أحمد بن زكري يغنّي فأعجبه حسن صوته... وحين علم بفطنته وذكائه بعد اختباره في بعض المسائل خاطبه قائلا:" أين أبوك؟ فقال له مات، وأمّك؟ فقال: حيّة، وما أجرتك في الطراز؟ فقال له: نصف دينار في الشّهر، فقال له: أنا أعطيك نصف دينار في الشّهر وارجع يا ولدي تقرأ، وسيكون لك شأن "[61]، وهذا التضامن مع اليتامى لم يقتصر على الرجال منهم، فالصالحات من النساء ساهمن في تفعيل التكافل الاجتماعي معهم، فهذه الصالحة أمّ الفتح كانت بمثابة الأم لليتيم ابن مرزوق الخطيب، حيث يصفها:" وكانت أمّ خالي من الصالحات، وهي أم الفتح، هي التي ربّتني، فإنّ أمي رحمها الله تعالى، توفيت وخلفتني إثر الفطام، فربتني إلى أن حججت صحبتها في العام المذكور لا أعرف غيرها في التربيّة[62]".

على المستوى العملي الميداني الوظيفي، رأى الشرفاء والأولياء أنّ أكثر الأساليب فعاليّة هيّ الحرص على تشجيع التصدق على المعوزين والمعدومين، لتمكينهم من تجاوز مشاكلهم الغذائيّة وإعالة أهليهم، وضمن هذا التوجّه عمد الشريف أبو يعقوب الهواري(ت843هـ/1439م)[63] إلى التصدّق بكلّ نصيبه من الميراث المقدر بخمسمائة دينار ذهبيّة لفائدة" الأيتام وذوي الحاجات وما امسك فيها شيئا"[64]، وهذا خلاف المنأى الذي درج عليه بعض الباحثين من التشنيع على الفقهاء والأولياء، باستغلال مناصبهم في تحقيق مزيد من الثراء، وهو افتراض مورس بكثير من التعتيم والتعسّف و الاجتراء، فكثير منهم كانوا أصحاب جاه[65] وثروة، لم يترددوا أبدا في التضامن مع اليتامى والمحتاجين، ولما كانت نفوسهم تتفاوت في درجة البذل والسخاء، فإنّ بعض فقهاء العصر قد تجاوز في عطائه حد التضامن إلى الإيثار، بل والخروج عن كل ما يملك[66]، فالولي أحمد الغماري (ت874هـ/1470م):" كان سباقا إلى أعمال البرّ والتقوى...وربّما جاءه من الذهب المائة والمائتين فلا يدخر ولا ينتفع في خاصة نفسه بشيء منه، وإنّما

يفرقه في الفقراء والمحاويج "[67]، وفيه قيل :يا كافل الأيتام يدفع عنهم بنداه جور الدهر أم إضراره[68]، وكان الولي إبراهيم التازي (ت 866هـ/1462م)):" محبّا في الفقراء والمساكين مؤثرا لهم بإغاثة ملهوفهم والقيّام بشؤونهم دؤوبا على فعل الخيرات وأنواع الطاعات حريصا على إيصال الخير لعباد الله يحبّ لكافّة الخلق ما يحبّ لنفسه، وكانت الصدقات والنذور تردّ عليه من الآفاق فلا يدخر شيئا منها بل يصرف ذلك في وجهه ويعود به على المحاويج"[69]، كان أبو عبد الله ابن مرزوق:" إذا دخل مع العشي دخل بين يديه بمحفظة فيها الموجود من الفواكه في الوقت أخضرها أو يابسها فإذا لقيّ صبيّا صغيرا، أو من يتفرّس فيه الحاجة إلى شيء ممّا عنده فيعطيه إيّاه، وصرّة فيها دراهم فيتصدّق فيها، فكان المساكين والصبيان يتعرّضون له في طريقه"[70].

لا مناص من القول أنّ الاعتناء بالأيتام وبذل الصدقات لهم شكّل محورا أساس في المنظومة القيمية الأخلاقية وفي خطابات النخب الزيانية، في حين فرضت وضعية الهشاشة والخصاصة على فئات المهمشون من اليتامى التوجه إلى المتصوفة باعتبارهم سلطة دينية ثانية بعد الفقهاء، لتجاوز تلك النظرة الإقصائية بناء على الصورة السلوكية والأخلاقية التي جسدها المتصوفة داخل مجتمع المغرب الأوسط، إذ اشتهر أصحابها بصدق الطوية وصلاح السلوك[71].

ومهما يكن فقد شارك الفقهاء، الصلحاء، والشرفاء الزيانيون في خضم هذا التوجّه الجديد نظراءهم من باقي الفاعلين الاجتماعيّن على الساحة الزيانية، في تقديم جملة من الخدمات الاجتماعية التي كان لها إسهام كبير في إزالة بعض ملامح البؤس والشقاء التي طبعت محيا الشرائح الاجتماعية المحرومة[72].

2. تفريج الكربات ورد المظالم:

لعلّ ما يحسب لذوي الصلاح والولاية هوّ وضع أنفسهم موضع الخديم لليتامى للذود عنهم وتفريج كربهم، وربّما يرجع ذلك لما عاشه بعضهم في طفولتهم من شقاء وعناء اليتم

ومن ظلم الأقارب، فهذا أبو مدين شعيب الغوث (509–594هـ) يروي عن طفولته :" كنت بالأندلس يتيما، فجعلني إخوتي راعيا لمواشيهم...فلحقني أخي وبيده حربة...فسل سيفه علي وقال لي:" والله لأقتلنك وأستريح منك، فعلاني بسيفه ليضربني"[73]، وربّما إحساس ومعاناة اليتم في الطفولة كون عند هؤلاء طاقة لفعل الخير فكانوا لليتامى حراسا وخدما، فهذا أبو عبد الله ابن مرزوق كان سببا في تخليص الصبيّ اليتيم من بطش السلطان أبي يحي يغمراسن من خلال تفعيل كراماته، وهو ما نقله لنا صاحب المناقب المرزوقية في نصّ مفاده :" أخبرني جماعة لا أحصيهم كثرة وهيّ من القضايا المتواترة المعروفة عند قدماء أهل تلمسان أن سبب اشتهاره أنّ رجلا كان يتردّد إليه بمرافق الباديّة، من جبل بني ورنيد فوق العبّاد، توفيّ وخلف ولده وزوجته، فكان يتردّد إلى الشيخ بالحطب والفحم وما يحتاج إليه في الباديّة، فسعى قوم من قبيلهم في الولد لوزير السلطان أبي يحي يغمراسن بما يوجب سفك دمه، وأخذ مالهم ظلما، فسجن الولد، فجاءت أمه وهيّ ملتهفة قد ذهب عقلها، وعيا صبرها، فشكت إليه أمرها، فدعا لها، فقالت له: ما أريد منك دعاء وإنّما أريد منك أن تكلّم السلطان، فقال: مالي وللسلطان؟ ومن أين أعرفه أو يعرفني؟ إنّما أشفع فيه إلى سلطان السلاطين ومولى الكل، المتصرّف في الجميع بما يشاء من قدرته، فلم يرضها ذلك، فباتت عنده في الدار، فلما انتصف الليل سمعوا ضجة بباب الدار، وقارعا يقرع الباب وينادي: أين سيّدنا أبو عبد الله، فخرج فوجد الوزراء وحجاب السلطان، وكبراء وأهل دولته، ومعهم ولد المرأة، فقالو له: السلطان يقبل يديك ويسلم عليك...فصاح الصبي بوالدته، فاعتنقت ولدها، وذهب كربها"[74]، كما تدخل الولي أبو يعقوب من خلال بث خطاب الترهيب والتخويف للسلطان الزياني يغمراسن من أجل إرجاع مال المساكين واليتامى:" ...يا مغرور بدنياه، ردوا ما خنتم وأخرجوا ما به من أموال المساكين في خزانيكم، تسترتم مادام العمر باقيا، فمن وجدت عنده خيانة بعد انقضاء الأجل، فقد حل للعقاب دمه"[75]،كما تدخل

الوليّ سيدي واضح لرفع الإهمال والتهميش الذي عاناه الضعفاء من قبل السلطان أبويحيى يغمراسن بن زيان في خطابه له:" يا يغمراسن أما تعلم وقوف الضعفاء والمساكين وذوي الحاجات ببابك وما يجدونه في قلوبهم من الانكسار ومدافعة حراس الأبواب بطول احتجابك عنهم، وإنما فعلت ذلك لتستيقظ من سنة غفلتك وتتذكر أحوال القاصدين إليك، فأخذ يغمراسن يتلق بين يديه ويعتذر لديه وقد علته خجلة الوقوف"[76]

لعبت كرامات الأولياء دورا فعالا لحل مشاكل الشريحة المستضعفة في المجتمع والتخفيف من معاناتها، فقد كانت بمثابة وسيلة سلمية استخدمها المتصوفة للتعبير عن رفضهم لتلك الظروف والمشاكل التي يتخبط فيها المجتمع، أملا في إيجاد حلول أو تغيير للواقع المتردي على الأقل[77]، ولا غرو في أنّ تفشّي سلوك قضاء حوائج الناس، والسعي في مشاغلهم، يستند فضلا عن النخوة الإنسانيّة، إلى مرجعيّات شرعيّة نابعة من مباركة الدّين الحنيف لتبنّي هذا المسلك، وتقاليد متوارثة، واظب عليها وجوه القوم وكبرائهم، من أولي السلطان والنفوذ وذوي المنزلة الاجتماعيّة الرفيعة، لأجل التنفيس على النّاس وتفريج كروبهم[78].

يذهب حميد تيتاو إلى التأكيد على عنصر الاحتضان والإدماج، ففي هذه الحالات مجتمعة يبرز دور كافل اليتيم يحضر سلم العلم والصلاح أكثر كعاملين أساسيين في تحقيق الترقي الاجتماعي ونجاح الانتقال من عالم الهامش إلى عالم المركز، يتدخّل عالم هنا ووليّ هناك لينتشل اليتيم من حالة الهشاشة إلى حالة المندمج في المجتمع، لابل والمؤثر فيه بالنظر على الأقلّ إلى حرص السيرة المنقبيّة على استحضار أسماء معيّنة كان لها تأثير في مرحلة معيّنة من مسار هؤلاء الأيتام[79].

خاتمة:

لعلّ ما سعت إليه هذه الورقة البحثية أن تزيح الغموض وتنفض الغبار عن واقع رعاية الأيتام في المغرب الأوسط الزياني ولو بشكل عام، من خلال عرض لسياسات سلطتين فاعلتين في حقل الرعاية الاجتماعية، وهما سلطة البلاط الزياني ممثلة في حكامها

وسلاطينها، والنخب الفقهية والصوفية التلمسانية من فقهاء وصلحاء ومتصوفة، ولئن كان سبر أغوار سياساتهما مكننا من كشف حجم التلاحم الاجتماعي مع اليتامى وتبيان فضل رعايتهم.

إنّ الرابط أو الحس الانساني الذي يتمظهر في قرارات الهيئات الحكومية التي يمثلها سلاطين وحكام بني زيّان أو تلك المؤسسات الخيرية التي تقودها النخب الزيانية كان لها الدور الايجابي في رعاية الفئات الاجتماعية الهشة بالمغرب الأوسط من خلال السعي الحثيث لتحسين المستوى المعيشي وجودة الرعاية الاجتماعية.

ساهم التكافل والترابط الاجتماعي في المجتمع المغرب أوسطي خلال العصر الزياني بين مختلف التشكيلات الاجتماعية مع شريحة اليتامى في دعم التلاحم الأسري والاجتماعي، وتجلى ذلك في مظاهر إنسانية وأخلاقية تمظهرت في أشكال الرعاية الاجتماعية، المادية، والنفسية فكانت بحق من صور الترابط الاجتماعي.

يبقى التنقيب والبحث حول أوضاع الأيتام والمستضعفين في المجتمع المغرب أوسطي جديرا بمضاعفة الجهد وتوفير المتون المصدرية المخطوطة والمطبوعة والبحث فيها، لما يوجد من غموض حول جوانب عديدة تخص حضورهم في المجتمع وعلاقاتهم وتعاملاتهم.

---

[1] ذهب بعض الدارسين المهتمين بحقل المهمّشين إلى انتقاء مصطلح التغييب أو بالأحرى المغيبون للدلالة على الشرائح المستضعفة والمغيبة عن الساحة التاريخية، ينظر: مجموعة مؤلفين، المغيّبون في تاريخ تونس الاجتماعي، تنسيق: الهادي التيمومي، منشورات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس 1999.

[2] ابراهيم القادري بوتشيش، الأيتام في الأندلس من خلال وثيقة تعود للعصر المرابطي، ضمن كتاب: المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي إشكاليّات نظريّة وتطبيقيّة في التاريخ المنظور إليه من الأسفل، ط1، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة،2014، ص202.

[3] حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني 609-869هـ/1212-1465م إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والذهنيّة، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلاميّة والعلوم الإنسانيّة، الدار البيضاء، المغرب، 2010، ص400.

[4] محمّد ناصري وخالد بلعربي، الحرب والأسرة بالمغرب الاوسط خلال العهد الزيّاني–رؤية تاريخيّة أنثروبولوجيّة–، مجلّة أنثروبولوجيّة الأديان، مج16، ع02، جوان 2020، ص316.

[5] ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد: محمد ابن شقرون، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر،2015، ص364.

[6] المصدر نفسه، ص222.

[7] نقصد بذلك النصوص التي لا تنطق بلغة الأرقام، لكنها تعطي انطباعا تشكل في ذهنية المؤرخ، وغالبا ما تكون مفيدة في معرفة حجم الساكنة كثرة أو قلة، رغم أنها لا تفصح عن أرقام إحصائية، ومع أنّ هذه النصوص تتسم بالعمومية وعدم الدقة، لكنها تكشف عن الخطوط العريضة للتطور الديموغرافي، ينظر: إبراهيم القادري بوتشيش، أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديمغرافي بالمغرب في العصر الوسيط(دراسة حالة)، مجلة كنانيش، ع1 الديمغرافيا في تاريخ المغرب، إعداد: مصطفى نشاط وآخرون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المغرب، صيف- خريف1999، ص42.

[8] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد،ج1،تح: ألفرد بل، مطبعة بيير فونطانة الشرقية، الجزائر،1903، ص124-125.

[9] محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح: محمود آغا بوعياد، موفم للنشر، الجزائر،2011، ص132.

[10] يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص125.

[11] المصدر نفسه، ج1، ص121.

[12] عبد الرحمان ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج7، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مرا: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ص129.

[13] أبي عبد الله الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضوي، ط2، المكتبة العتيقية، تونس، 1966، ص72-73.

[14] عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص341.

[15] محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص152-157.

[16] ابن الأحمر الغرناطي، نثير الجمان في شعر من نظمني وإيّاه الزمان، تح: محمد رضوان الدّاية ونشره بعنوان: أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن الهجري، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت 1987، ص271.

[17] المصدر نفسه، ص273.

[18] الكفيف الزرهوني، ملعبة الكفيف الزرهوني، تح: محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط، 1987، ص70.

[19] المصدر نفسه، ص82.

[20] محمد ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تح: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعيّاد، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص203.

[21] لخضر بولطيف، التكامل بين الهيئات الحكومية والمؤسسات الأهلية في القيام على العمل الخيري في تاريخ الغرب الإسلامي، المجلة التاريخية الجزائرية، مج06، ع02، 2022، ص 156.

[22] زين عزيز خلف العسافي، توجيهات القرآن الكريم والسنة النبويّة في رعاية الأيتام: دراسة استنباطيّة وصفيّة، مجلّة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلاميّة، مج21، ع38،جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلاميّة- مركز بحوث القرآن الكريم والسنة النبوية، جوان 2017، ص65.

[23] كهينة العسكري، حقوق الطفل بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، رسالة ماجستير في القانون الدولي والعلاقات الدولية، جامعة أحمد بوقرة بومرداس،2016/2015، ص113.

[24] حنان قرقوبي، رعاية اليتيم في الإسلام، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2003، ص197،195.

[25] سورة النساء، الآية 09.

[26] عبد الرحمان ابن خلدون، ابن خلدون ورسالته للقضاة" مزيل الملام عن حكّام الأنام"، تح: فؤاد عبد المنعم أحمد، ط1، دار الوطن، الرياض، السعوديّة 1417هـ، ص129-130.

[27] محمد بن عبد الكريم المغيلي، تاج الدّين فيما يجب على الملوك والسلاطين، تح: محمّد خير رمضان يوسف، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1994، ص34-35.

[28] أبي الحسن علي بن حبيب الماوردي، درر السلوك في سياسة الملوك، تح: فؤاد عبد المنعم أحمد، ط1، دار الوطن للنشر، الرياض،1997، ص114.

[29] أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخافجي، القاهرة، ص211.

[30] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدّمة، ج2، تح: علي عبد الواحد وافي، ط7، دار نهضة مصر للنشر، مصر،2014 ، ص732-733.

[31] أبو حمو موسى الثاني، واسطة السلوك في سيّاسة الملوك، تح: محمود بوترعة، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر،2012، ص149.

[32] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ج3، ص969.

[33] ابن رضوان المالقي، الشهب اللامعة في السيّاسة النافعة، تح: علي سامي النشّار، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب 1984، ص387.

[34] أبو حمو موسى الثاني، المصدر السابق، ص149.

[35] محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص181.

[36] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج2، تح: بوزيّاني الدرّاجي، دار الأمل للدّراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 122.

[37] المصدر نفسه، ج2، ص240.

[38] ابن الحاج العبدري، المدخل، ج1، مكتبة دار التراث، القاهرة، ص289.

[39] مؤلّف مجهول، السفر الثاني من زهر البستان في دولة بني زيّان 760-764هـ/1359-1363م، عناية وتقديم: محمّد بن أحمد باغلي، ط2، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر 2012، ص 40.

[40] حميد تيتاو، الأيتام في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، ضمن كتاب: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وتاريخ الذهنيّات بالمغرب والأندلس قضايا وإشكاليّات، ج2"قضايا في التاريخ الاجتماعي"، أوراق الندوة الدوليّة التكريميّة المهداة للأستاذ المؤرخ إبراهيم القادري بوتشيش، تقديم وتنسيق: محمد الشريف، ط1، الجمعيّة المغربيّة للدراسات الأندلسيّة، مطبعة شمس برينت، سلا المملكة المغربيّة 2020،ص58.

[41] مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 225.

[42] المصدر نفسه، ص226.

[43] محمد ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقيّة، تح: سلوى الزاهري، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربيّة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،2008، ص194.

[44] ابن مريم المليتي، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تح: عبد القادر بوباية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014، ص 113.

[45] المصدر نفسه، ص114.

[46] صابرة خطيف، فقهاء تلمسان والسلطة الزيّانيّة، ط1،جسور للنشر والتوزيع، الجزائر 2011 ،ص261-262.

[47] ابن سحنون، آداب المعلمين، تح: حسن حسني عبد الوهاب ومحمد العروسي المطوي، تونس1972، ص88-89.

[48] حميد تيتاو، الحرب والمجتمع، ص401.

[49] عبد المالك بكاي، الحياة الريفيّة في المغرب الأوسط من القرن 7-10هـ/13-16م، أطروحة دكتوراه، قسم العلوم الإنسانيّة، شعبة التاريخ، جامعة الحاج لخضر، باتنة،2013-2014، ص193.

[50] الفقيه هو من يتعاطى الفقه أو المتلبس به، والفقه لغة: بمعنى" الفهم والفطنة"، ثم غلب على علم الدين فخص به، ينظر: ابن منظر، لسان العرب،ج13،ط3،دار صار، بيروت 1994م، ص522، ولعله من المفيد القول بأن التحلية باسم" الفقيه"كانت ذات شأن في غرب العالم الإسلامي مقارنة بشرقه، فلقد يتجوز أهل المشرق إطلاق اسم الفقيه على طلبة العلم المشتغلين بتحصيله، بينما كان أهل المغرب والأندلس يعدونه من تحال الشرف والرفعة التي ينوه بها ذوو الشأن، يقول ابن سعيد الأندلسي(ت685هـ/1286م) :" وسمة الفقه عندهم جليلة... وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه، لأنها أرفع السمات"، ينظر: لخضر بولطيف، الفقيه والسياسة في الغرب الإسلامي– مدخل إلى دراسة التجربة السياسية الموحدية–، سلسلة منشورات الجيب من إصدار المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2005، ص11.

[51] لخضر بولطيف، التكامل بين الهيئات الحكومية والمؤسسات الأهلية في القيام على العمل الخيري في تاريخ الغرب الاسلامي، ص160.

[52] أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي، رياض النُّفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيّة وزهادهم ونسّاكهم وسيّر من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ج2، تح: بشير البكّوش، مر: محمّد العروسي المطوي، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1994، ص145، 457، نجلاء سامي النبراوي، جوانب من الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة للطفل بالأندلس(ق4–10هـ/10–16م)، إصدارات شبكة الألوكة، ص20.

[53] أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج8، خرجه جماعة من الفقهاء: محمد حجي وآخرون، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، الرباط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص20.

[54] هو أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي، إمام العارفين، نزيل تلمسان وهو من أكابر العبّاد العارفين بالله، ينظر: يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص65، ابن مريم، المصدر السابق، ص160–161.

[55] يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص65–66، ابن مريم المليتي، المصدر السابق، ص161–162.

[56] ابن مريم المليتي، المصدر السابق، ص415.

[57] أبي عبد الله محمد الملالي التلمساني، المواهب القدسيّة في المناقب السنوسيّة، تح: علال بوربيق، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر،2011، ص567.

[58] أبي عبد الله محمد الملالي التلمساني، المصدر السابق، ص568

[59] المصدر نفسه، ص569.

[60] ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص 161–162.

[61] ابن مريم المليتي، المصدر السابق، ص111–112.

[62] محمد ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقيّة، ص 292.

[63] من صلحاء القرن8هـ/14م، دفين بني حلوان من ساحل مازونة، ينسب إلى هذا الوليّ الصالح فرق أولاد عيسى بن إدريس، ومنهم أولاد عبد الصمد وبنو عرهب في قصر الواداغير حول تلمسان وهم أربعة فرق منهم بورغبه، برغيوة، وبتادلة وبالشقراني حوز مستغانم وبه دفن جدّهم محمد بن يعقوب، ينظر: أبو القاسم الزيّاني، تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، تح: رشيد الزاوية، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة بالمملكة المغربيّة، المغرب، 2008، ص85.

[64] أبي عمران المازوني، صلحاء وادي الشلف، تحقيق: غرداوي نورالدّين، دار الخلدونيّة، القبّة، الجزائر، 2017، ص249، رضا بن النية، أشراف المغرب الأوسط خلال العصر الزيّاني 633–962هـ/1236–1555م، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة2 عبد الحميد مهري، 2018/2017م ص411.

[65] يرى عبد الرحمان بن خلدون أن المكانة الدينية أو الرمزية يمكن أن تكون مصدرا للجاه يقول:"...إِنَّا نَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الدِّينِ وَالعِبَادَةِ إِذَا اِشْتَهَرُوا حَسُنَ الظَّنُّ بِهِمْ واعْتَقَدَ الجُمْهُورُ مُعَامَلَةَ اللهِ فِي إِرْفَادِهِمْ فَأَخْلَصَ النَّاسُ فِي إِعَانَتِهِمْ عَلَى أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَالاِعْتِمَالِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِمْ الثَّرْوَةُ وَأَصْبَحُوا مَيَاسِيرَ مِنْ غَيْرِ مَالٍ مُقْتَنًى إِلَّا مَايَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِيَمِ الأَعْمَالِ الَّتِي وَقَعَتِ المعُونَةُ بِهَا مِنَ النَّاسِ لَهُمْ،

رَأَيْنَا مِنْ ذَلِكَ أَعْدَادًا فِي الأَمْصَارِ وَالمُدُنِ وَفِي البَدْوِ يَسْعَى لَهُمُ النَّاسُ فِي الفَلَحِ وَالنُّحْرِ وَكُلُ مَاهُوَ قَاعِدٌ بِمَنْزِلِهِ لَايَبْرَحُ مِنْ مَكَانِهِ فَيَنْمُو مَالُهُ وَيَعْظُمُ كَسْبُهُ..."، ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص843، فإن كان الجاه متّسعا كان الكسب الناشئ عنه كذلك وإن كان ضيقا قليلا فمثله"، إن هذه القراءة الخلدونية للمجتمع وإن ركزت على المال والكسب فقد قرنته بالجاه والسلطة والعلم، وما يعزز هذا هو مقابلته جاه العلم بجاه السلطة" إنا نجد كثيرا من الفقهاء....الخ"، ينظر: دلال لواتي، ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي–قراءة في أدبيات العصر الإسلامي الوسيط–،مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مج 28، ع 1، 2014، ص 371–372.

[66] لخضر بولطيف، التكامل بين الهيئات الحكومية والمؤسسات الأهلية في القيام على العمل الخيري في تاريخ الغرب الاسلامي، ص161.

[67] ابن صعد التلمساني، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق: يحيى بوعزيز، ط1، منشورات ANEP، الجزائر، 2002، ص194.

[68] ابن صعد التلمساني، المصدر السابق، ص237.

[69] المصدر نفسه، 159–160.

[70] ابن مرزوق، المناقب المرزوقيّة، ص 155.

[71] عفاف غزول، اللصوص والولي دراسة في الواقع الأمني وأشكال العقاب داخل مجتمع المغرب الأوسط(5–9هـ/11–15م)، مجلة المعيار، مج26، ع4، 2022، ص796.

[72] رضا بن النيّة، المرجع السابق، ص374.

[73] ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه: محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي العلمي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص11–12، حول ترجمة أبي مدين شعيب ينظر: ابن مريم المليتي، المصدر السابق، ص 223–237.

[74] ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقيّة، ص151–152.

[75] أبي عمران موسى المازوني، المصدر السابق، ص21.

[76] المصدر نفسه، ص214–215.

[77] بزة نوال وعشي علي، الفقر والجريمة في المغرب الأوسط –جدل السببية والحتمية–ق2–10هـ/8–16م، مجلة الإحياء، مج22، ع30، جانفي 2022، ص966.

[78] رضا بن النية، المرجع السابق، ص388.

[79] حميد تيتاو، الأيتام في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، ص29.